

نتائج ثورة بني غانية 580هـ - 633هـ / 1184-1237م

د. هرباش زاجية
جامعة معسكر

بسّطت الدولة الموحدية نفوذها على كامل أراضي الإمبراطورية المرابطية سواء كان ذلك في المغرب أو في الأندلس، ولقد كانت غرناطة آخر معقل مرابطي في الأندلس صمد أمام ضربات الجيوش الموحدية. توفي يحيى بن غانية في سنة 543هـ / 1148م وأوصى أخاه محمدا بن غانية بالانتقال إلى جزر البليار قبل وفاته، فما كان من حاكم جزر البليار إلا أن يمثل لأوامر أخيه، ويستقر بجزره قرابة الثلاثين عاما، اهتم بتحصينها، وبتقوية جيوشها وأسطولها، واستقبل بها فلول المرابطين الفارين من الأندلس، والمغرب واستمر في سياسته التي اتبعها أولاده من بعده فتحولت تلك الجزر إلى مملكة مرابطية مستقلة. عرفت جزر البليار أزهى عصورها في عهد إسحاق بن غانية من سنة 550هـ إلى 580هـ / 1146-1184م إلا أن فترة حكم هذا الأخير لم تكن عادية لأنها استدفع أبناءه من بعده إلى الدخول في حرب ضروس مع الدولة الموحدية التي تمكن كل من محمد وإسحاق ابنا غانية من تجنبها حفاظا على كيانهما واستقلالهم إلا أن هذا الاستقلال سرعان ما هددته الاستفزازات الموحدية التي طلبت على لسان خليفتهما أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن تحديد موقفهم من السلطة الموحدية إما بإعلان الطاعة والولاء لها، أو بالتمرد عليها فكان الردّ سريعا منهم بحرب بدأت من بجاية في 06 شعبان 580هـ / 13 نوفمبر 1184م بقيادة علي بن غانية برفقة إخوته يحيى، عبد الله، والغازي تاركا أمر مملكته لأخيه طلحة لتشمل هذه الحرب منطقة المغرب الأوسط، وإفريقية وجزر البليار (الجزر الشرقية) إلى غاية سنة 633هـ / 1237م⁽²⁾ انعكست على القوتين الإسلاميتين بنتائج وخيمة شملت جميع الميادين استفاد منها بالدرجة الأولى النصارى الذين استرجعوا الأندلس من بين أيديهم وتركوهم متطاحنين في بلاد المغرب الإسلامي.

1- النتائج السياسية :

1- سقوط جزر البليار:

تمكنت قوات النصارى من استرداد جزر البليار بعد العمل الكبير الذي قام به خايمي الأول الملقب بالفاتح⁽³⁾ على إثر استنجد السيد أبي زيد بن عبد الرحمان بن أبي عبد الله بن أبي حفص والي بلنسية، هذه الخيانة التي انتظرها ملك أراغون طويلا ليستغلها لتوجيه ضربة ناجحة اشتركت فيها قوات أراغون، قطلونية، برشلونة، بروفانس، نارابون وحتى بيزة وجنوه بقوة بلغت 150 سفينة تحمل ألفا وخمسمائة فارس، وخمسة عشر - ألفا من المشاة⁽⁴⁾ تمت بواسطتها استباحة جزيرة ميورقة بكل وحشية، انتهت بقتل 50.000 شخص، وأسر 2000 من المسلمين⁽⁵⁾ في 15 صفر 627هـ / أول يناير 1230م، ولم تتمكن

المقاومة الميورقية من الصمود إذ سرعان ما انهارت في 10 ربيع الأول سنة 628هـ/ 13 فبراير 1231م وكان ذلك إيذانا ببداية سقوط الحصون الإسلامية، فميورقة التي أصبحت عاصمة لخايمي الأول فتحت شهيته لاسترداد باقي جزر البليار (منورقة ويااسة) ومنها التوسع في مختلف المناطق المتبقية في أيدي المسلمين.

2- بداية سقوط الأندلس:

دخل النصارى إلى جزر البليار نجم عنه سقوط معظم المدن الأندلسية فسيطروا على بلنسية في 20 ذي الحجة 634هـ/ 1236م،⁽⁶⁾ ثم قرطبة في 23 شوال 633هـ/ 29 جوان 1236م⁽⁷⁾ ومنه ساروا إلى مرسية في 10 شوال 641هـ/ 1243م⁽⁸⁾ واشيلية في 27 رمضان 646هـ/ 23 نوفمبر 1248م⁽⁹⁾ وغيرها من المناطق، وبقيت غرناطة لوحدها في ظل بني الأحمر تصارع قوات النصارى المتكاملة إلى غاية 890هـ/ 1492م وهو تاريخ خروج المسلمين نهائيا من الأندلس⁽¹⁰⁾.

3- تفكك الدولة الموحدية:

تعتبر تولية الخليفة الموحدي للشيخ عبد الواحد بن أبي حفص المهتاتي⁽¹¹⁾ بإفريقية إيذانا بظهور الدولة الحفصية التي سرعان ما انفردت بالحكم بها لتساهم معركة حصن العقاب سنة 609هـ/ 1212م في زيادة تفكك الدولة الموحدية التي شهدت ميلاد ثلاث دول جديدة في ربوعها هي الدولة الحفصية في إفريقية، الدولة المرينية في المغرب الأقصى، والدولة الزيانية في المغرب الأوسط.

II- النتائج الاقتصادية والاجتماعية :

1- النتائج الاقتصادية:

أثرت هذه الثورة على جميع المناطق التي دارت في رحاها الحرب حيث بدأت بالمغرب الأوسط وبالضبط من منطقة بجاية التي كانت مركزا تجاريا هاما كثير الثمار والفواكه والخيرات وبها دارا لصناعة السفن⁽¹²⁾ لكن الحرب خربتها، ثم انتقلت مجرياتها إلى كل من جزائر بني مزغنة، المتيجة، مازونة، مليانة، أشير، قسنطينة، بونة، المسيلة، تبسة، تلمسان، تيهرت، وارجلان والتي كانت في معظمها مناطق زراعية، اشتهرت بمنتجاتها الزراعية والصناعية، وبمواقعها ذات الأهمية الاستراتيجية من الناحية التجارية،⁽¹³⁾ التي أسهب الرحالة الجغرافيين في وصفها. لم يقتصر الوضع على المغرب الأوسط بل إن مجال الحرب الجغرافي امتد أيضا إلى إفريقية فضررت توزير التي كان يخرج من تمورها حمولة ألف بعير عمرا للتجارة⁽¹⁴⁾ وأيضاً قسطنطينية، ثم قابس أو دمشق الشام،⁽¹⁵⁾ وإذا كانت قصصة قد نجحت باستسلامها لتجنب التدمير فإن ذلك لم يشفع لها وكان انتقام الموحدين منها فظيعا بحصارها وبالإقدام على قطع ألف نخلة من نخيلها في اليوم،⁽¹⁶⁾ كما شهدت كل من منطقة صفاقس، المهدية بإفريقية، وسرت بليبيا، والعقبة الكبرى قرب الإسكندرية بمصر نفس المصير باعتبارها كانت مجالا لهذا الصراع المرير بين الإخوة الأشقاء .

2- النتائج الاجتماعية:

- (1) - القتل والبطش والرعب من الجانبين في كل المناطق التي دارت فيها رحى هذه الحرب فقتل الكثير من سكان بجاية،⁽¹⁷⁾ وجالت السيوف ذبيحا في رقاب أهل قفصة⁽¹⁸⁾ ليشمل هذا المصير كل المناطق بالمغرب الأوسط والأدنى.
- (2) - النهب والسلب بالاستيلاء على أموال الأهالي بغير حق، فكما سلب المارقة أهل جزيرة شريك بتونس بما في ذلك ثيابهم التي توارىهم وتستر أجسادهم، فإن الموحدون غنموا في موقعة شبرو قرب تبسة سنة 604 هـ / 1207 م مائة وخمسون فرسا وحولة ألفي جمل⁽¹⁹⁾ في الوقت الذي عمجز فيه سكان بجاية حسب رواية ابن عذارى حتى عن تكفين موتاهم جراء ما ألحقته بهم هذه الحرب من ويلات⁽²⁰⁾.
- (3) - المجاعات والانتحارات حيث خربت الحرب جل المزارع، فقلت موارد التجارة لانعدام الأمن ومات الكثير من سكان باشو بتونس على سبيل المثال فانقطع منهم إثني عشر ألفا⁽²¹⁾ عن بقية إفريقية واضطر سكان منورقة بجزر البليار إلى أكل الميتة من شدة الجوع والحصار،⁽²²⁾ واختار بعضهم في بلاد المغرب الانتحار بعدما فتك بهم ثالث الجوع والعطش والأوبئة⁽²³⁾.
- (4) - الضرائب التي أجبر الأهالي على دفعها بأثمان باهظة بلغت أحيانا 100.000 دينار⁽²⁴⁾ مما جعل أهل توزر يخسرون كل أموالهم، ولقد شملت هذه الضرائب المجحفة كل المناطق التي شملتها الحرب دون استثناء.
- (5) - التمثيل بالموتى وهتك الأعراض، فكما مثل الموحدون بقيادة بني غانية كغزي الصنهاجي، وعبد الله بن غانية⁽²⁵⁾ نهج ابن غانية نفس الشيء مع عبد الرحمن ابن منديل المغراوي بالمتيجة على سبيل المثال،⁽²⁶⁾ أما بالنسبة لهتك الأعراض فيكفي الرجوع إلى المصادر التي وصفت ذلك من الجانبين.⁽²⁷⁾
- (6) - عودة الصراع بين الأجنحة البربرية فلقد أعادت هذه الحرب الصراع بين قبيلتي زناتة ومصمودة أي بين مصامدة الدولة الموحدية وزناتة الدولة المرينية⁽²⁸⁾ من جهة وبين مصامدة إفريقية الممثلين في قبيلة هنتاتة ذراع المصامدة الأيمن، وزناتة بني عبد الواد، هذا الصراع الذي عاد إلى بلاد المغرب من جديد على اثر تضعف كيان الدولة الموحدية والذي سمح بظهور ثلاث دويلات جديدة هي الدولة الحفصية، والدولة المرينية، والدولة الزيانية وما صاحب ذلك من صراع حربي فيما بينها لبسط النفوذ كل واحدة على حساب جارتها⁽²⁹⁾.

III النتائج العمرانية و الدينية: 1- العمرانية:

- دخل بنو غانية إلى بجاية في سنة 580 هـ / 1184 م من باب اللوز مما جعلها ميدان حرب لم يسلم منه سوى قصر اللؤلؤة⁽³⁰⁾ شأنه في ذلك شأن قلعة بني حماد التي حاصروها ودخلوها عنوة، وانتقلوا منها إلى جزائر بني مزغنة، المتيجة، مليانة، تيهرت، تلمسان وغيرها التي جاء ذكرها على لسان ابن خلدون من جراء ضراوة تلك الحرب مشيرا إلى: "...أنها لم تبصر بها نارا... ولا صرخت بها آخر الديكة..."⁽³¹⁾ تعبيرا عما أصابها من تخريب وتدمير، ونفس هذه الأعمال التخريبية شهدتها إفريقية في كل من قفصة، توزر، صفاقس،... إلخ⁽³²⁾.

2- النتائج الدينية:

أعادت هذه الحرب ذلك الصراع الذي أذكاه المهدي بن تومرت بين المصامدة والمرابطين⁽³³⁾ الذين وصفهم بالكفرة، والمجسمين لتستعمل هذه العبارات من جديد بين القوتين على اثر إعلان بنو غانية ولاءهم للخلافة العباسية،⁽³⁴⁾ والذي قابله الموحدون باللجوء إلى توظيف كلمات ذات صبغة دينية: كالفاسق، الكافر، واللعين ذكرت على المنابر بخطب الأئمة، أو في رسائل متبادلة تبارى كاتبوها في استعمال أقسى وأبشع عبارات الوصف بين الإخوة الأشقاء⁽³⁵⁾. نصف قرن من الصراع بين القوتين الموحدية وبقايا الدولة المرابطية كانت كافية للإتيان على الأخضر واليابس، فدمرت البنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية لكلتا الدولتين، مخلفة خسائر فادحة في جميع الميادين وكان المستفيد الوحيد من هذه الحرب هم النصارى الذين استفادوا من هذا الصراع ليحولوه إلى انتصارات استردوا من خلالها معظم المناطق الإسلامية في الأندلس ليكمل أحفادهم فيما بعد هذه المهمة بالسيطرة على غرناطة آخر معقل إسلامي، فضاعت الأندلس نهائيا من يد المسلمين، بل والأدهى والأمر من ذلك هو مطاردة النصارى للمسلمين الأندلسيين في أي مكان حلوا به واستعملوا تلك المطاردة كذريعة للاحتلال المناطق الإسلامية في المغرب الإسلامي (التحرشات الأسبانية والبرتغالية على شمال إفريقيا) الذي لم يتمكن من الوقوف في وجه قواتهم الزاحفة إلا بعد تدخل الأتراك⁽³⁶⁾.

الإحالات :

- ⁽¹⁾ المراكشي: المعجب في أخبار المغرب، تقديم وتحقيق زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع 1981 ص 255. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب يروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973، ص 215. ابن عذاري: (2) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب القسم الموحد، تحقيق إبراهيم الكتاني وآخرون دار الغرب الإسلامي بيروت ط 1، 1985، ص 175.
- ⁽³⁾ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 6 تصحيح فرحان المصطفى دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1999، ص 198.

⁽⁴⁾ Alfred Bel : les benou Ghania ed Ernest le roux, paris, 1903, p 184.

⁽⁵⁾ ALCOVER MIGUEL: El Islam en Mallorca, Escuela typographia provincial. Palma de Mallorca, 1930 p 151. condé Joseph : Histoire de la domination des Arabes et des Moueres en Espagne T2 Lib Alexis Emery, paris 1825, pp. 20-21.

⁽⁶⁾ Fourgous Jean: Iles Baléares Majorque, Minorque, Ibiza, Librairie, Hachette, Paris 1924, p 8.

- ⁽⁷⁾ المراكشي: المعجب في أخبار المغرب، تقديم وتحقيق زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع 1981 ص 255. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب يروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973، ص 215. ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب القسم الموحد، تحقيق إبراهيم الكتاني وآخرون دار الغرب الإسلامي بيروت ط 1، 1985، ص 175.
- ⁽⁸⁾ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 6 تصحيح فرحان المصطفى دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1999، ص 198.

أشباح يوسف: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ترجمة عبد الله عنان، نثر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 1958، ص 418.

⁽⁹⁾ الكوفر: الإسلام في ميورة ص ص 103-104. سيسالم سالم عصام: جزر الأندلس المنسية، التاريخ الإسلامي لجزر البليار ط 1، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ص 431.

⁽¹⁰⁾ المقرئ: نفح، ج 4، ص 474. ابن خلدون: العبر، ج 4، ص 172.

- ⁽¹¹⁾ المقرئ: المصدر السابق، ص 272. ابن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص ص 175 - 183.
- ⁽¹²⁾ المقرئ: المصدر السابق، ص 472. ابن الأبار: الحلة السيرة، ج 2، تحقيق حسين مؤنس، نشر الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة 1956، ص 314.
- ⁽¹³⁾ المقرئ: المصدر السابق، ص ص 472-473. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، مصر، ط 1975، ص 58-60.
- ⁽¹⁴⁾ ابن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص ص 175 - 183.
- ⁽¹⁵⁾ المراكشي: المعجب، ص 263، ابن عذاري: البيان، ص ص 245 - 249. برا نشفيك روبر تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، من القرن 13 إلى نهاية القرن 15، ج 1 ترجمة حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988، ص 41.
- ⁽¹⁶⁾ مجهول: الاستبصار في عجائب المطائر نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1985، ص 130. ابن عذاري: البيان، ص 135، رشيد بورويبة: الدولة الحفدية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص 134.
- ⁽¹⁷⁾ ابن حوقل، البكري، الإدريسي، حسن الوزان، الحميري ويمكن الرجوع إليها لمعرفة مدى أهميتها.
- ⁽¹⁸⁾ البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر البارون دي سالان، مكتبة أمريكا والشرق باريس، 1965، ص 48.
- ⁽¹⁹⁾ أبو الفدا: تقويم البلدان، صححه وطبعه دي سالان دار الطباعة السلطانية، باريس 1840، ص 123.
- ⁽²⁰⁾ التجاني: رحلة التجاني، تقديم حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية بتونس، نشرات كتابة الدولة للمعارف تونس، 1958، ص ص 138 - 139.
- ⁽²¹⁾ ابن عذاري: المصدر السابق، ص 179.
- ⁽²²⁾ ابن عذاري: المصدر السابق، ص 188. الحميري: الروض المعطار، ص ص 193 - 195.
- ⁽²³⁾ ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 197. الحميري: الروض، ص 338.
- ⁽²⁴⁾ ابن عذاري: البيان، ص 181.
- ⁽²⁵⁾ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 11، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1966، ص ص 520 - 521. التجاني: رحلة التجاني، ص ص 14 - 15.
- ⁽²⁶⁾ ابن عذاري: المصدر السابق، ص 240.
- ⁽²⁷⁾ ابن عذاري: المصدر السابق، ص 186.
- ⁽²⁸⁾ التجاني: المصدر السابق، ص ص 355 - 356. مجهول: مجموع رسائل موحدة من إنشاء كتاب الدولة المؤتمنة رقم 19، إصدار ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، رباط الفتح، المغرب، 1941، ص 172.
- ⁽²⁹⁾ ابن عذاري: المصدر السابق، ص 181. مجهول: رسائل موحدة رقم 31، ص 246.
- ⁽³⁰⁾ ابن خلدون: المصدر السابق، ج 7، ص ص 66 - 67.
- ⁽³¹⁾ التجاني: المصدر السابق، ص 147. المراكشي: المعجب، ص 260.
- ⁽³²⁾ ابن زرع: روض القرطاس، ص 281. ابن عذاري: المصدر السابق، ص 266.
- ⁽³³⁾ مجهول: الاستبصار، ص ص 128 - 131. ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 175. بورويبة: الدولة الحفدية، ص 208.
- ⁽³⁴⁾ ابن خلدون: المصدر السابق، ج 7، ص 80.
- ⁽³⁵⁾ ابن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص ص 194 - 196. التجاني: رحلة، ص ص 104 - 110، ص 158.
- ⁽³⁶⁾ المراكشي: المعجب، ص 164.